الخطبة الشامية لسعيد النورسي
وصفة طبية روحية لأمراض العصر

أ. د. توماس ميشيل[Ψ]

سأحاول من خلال هذه الورقة أن أبرز أفكار سعيد النورسي الأساسية كما هـي بادية في خطبته الشامية الشهيرة. وسأعلق فيما بعد على بُعد الرؤية الدينية التي تحتويها تلك الخطبة.

إن ما أنا بصدد التعليق عنه، قد ألقيت كخطبة الجمعة في المسجد الأموي بدمشق بداية سنة 1911 أمام جم غفير من المصلين يزيدون على عشرة آلاف شخص حسب بعض الروايات. وبعد مرور تسعون سنة تقريبا ما زالت هذه الخطبة تُطبع وتقرأ وتدرّس إلى يومنا هذا. مما يدل على أن تحليل سعيد النورسي للمجتمعات الإسلامية لا زال يتجاوب مع حاجات المسلمين في هذا القرن، وأن مكانته العلمية ما زالت مرموقة بينهم.

إنّ أفكاري في هذا الموضوع الذي سوف أتناوله هي أفكارُ رجلٍ غربي نصراني، وعليه فلتكن هذه الورقة بمثابة تجربة تدخل ضمن الحوار بين الأديان.

Ψ ولد سنة 1941 في مدينة سانت لويز الواقعة في ولاية ميسوري في الولايات المتحدة الأمريكية. بعد دراسة الفلسفة وعلم اللاهوت تعين عام 1967 راهباً كاثوليكياً. درس اللغة العربية والدين الإسلامي في لبنان ومصر. اكمل دراسة الدكتوراه حول كتابات ابن تيمية تحت إشراف البروفسور فضل الرحمن وحصل في شيكاغو عام 1978 على درجة الدكتوراه في الفكر الإسلامي. وكان عنوان رسالته (ابن تيمية "الجواب الصحيح": جواب عالم إسلامي على النصرانية). درّس في جامعة (ساناتا دارما) في مدينة (يوكيا كارتا) في إندونيسيا خلال اعوام 1978 – 1981 وتعين عام 1981 في المجلس البابوي للفاتيكان للحوار بين الأديان – قسم آسيا وفي عام 1988 اصبح رئيساً في شعبة الدين الإسلامي في القسم نفسه في الفاتيكان. وفي سنوات 1994 – 1996 عمل كسكرتير عام في الدائرة المسكونية وشوؤن الاديان لاتحاد المنظمات الأسقفية الآسيوية لاتحاد الكنائس (FABC-OEIA) في بانكوك عاصمة تايلند. وهو الآن امين سر في السكرتارية اليسوعية للحوار بين الاديان في روما في إيطاليا والسكرتير المسكوني لاتحاد المنظمات في الأسقفية الآسيوية لاتحاد الكنائس.

سؤالان تمهيديان:

سؤالان تمهيديان قد يكونا ذا أهمية بالنسبة للباحثين، يجدر بنا تناولهما قبل الخوض في تحليل محتوى الخطبة.

السؤال الأول قد يطرحه المؤرخون وهو يدور حول تاريخ النّص: إنّ هذه الخطبة أول ما ألقيت أُلقيت باللغة العربية وطُبعت بعد ذلك مرتين بذلك اللسان ونشرت من جديد في 1911، إلاّ أن في عام 1950 بادر سعيد النورسي في ترجمة هذه الخطبة إلى التركية منتهزا الفرصة لإدخال بعض التعديلات عليها كي يجعلها تتكيف مع أوضاع العالم آنذاك مضيفا لها لاحقة تحتوى في جملتها على أجوبة لأسئلة طرحها عليه طلابه. إنّ النص الذي اعتمدت عليه في هذه الورقة هو الترجمة الإنكليزية لهذا النّص التركي.

إنّ هذه الخطبة التي أُلقيت في بداية القرن العشرين، في الفترة التي شهدت غروب شمس الدّولة العثمانية، تنظر إلى المسائل الدينية التي كانت على وشك أن تشغل بال المسلمين في غضون تلك الانقلابات الصاخبة التي تلت تلك الفترة. ومن هنا يمكننا اعتبار النص التركي للمؤلف بمثابة شرح قام به النورسي بعد مضي أربعين سنة على الخطبة الأصلية. وعلى ضوء التغيرات الهائلة التي جرت حينذاك في العالم نذكر منها ظهور الجمهورية التركية، الحربان العالميتان، بروز الشيوعية في روسيا، الخطر النازي والفاشي على الإنسانية. هذا وفي الوقت الذي كان فيه سعيد النورسي يترجم الخطبة، كانت الشيوعية مستولية على أوروبا الشرقية والثورة الماوية نافذة في الصّين، كما شهدت تلك الفترة تخلّص بعض البلدان العربية والإفريقية والآسيوية من الاستعمار.

وها نحن في بداية هذا القرن الجديد وبعد مضي أكثر من أربعين سنة على النصّ التركي للخطبة، نشاهد فيه تقلبات في الأوضاع السياسية لا تقل هولاً عن التي عرفها التاريخ السابق. فقد شاهدنا فعلاً نهاية التجربة السوفياتية وانقسام الإتحاد السوفياتي، كما نشاهد انجذاب الصين إلى فكرة السّوق الحرّة، ونسمع عن محاولة تركيا وبلدان أوروبا الشرقية في الإنضمام إلى الوحدة الأوروبية، كما نسمع عن صراعات البلدان الأسيوية والإفريقية وهي تصارع المشاكل الناجمة عن الاستعمار الجديد وعولمة اقتصاد السّوق. وعليه، فإنّه من حق القارئ اليوم أن يتساءل ويقول:

"ما أهمية الخطبة الشامية اليوم بالنّسبة للمتديّنين وأهل الإيمان خاصة بعد مضي ما يقرب عن قرن لم يخلو من التقلبات الهائلة والتغيرات في الأوضاع؟ ".

هذا بالنسبة للسؤال الأول.

بيد أن الباحثين المهتمين بالقضايا الدينية يسألون سؤالاً آخراً، إذ قد ألقى الخطبة الشامية واعظٌ مُسلم على معشر من المسلمين العباد في إطار صلاة جماعة تعني المسلمين.

لكنني الآن بصدد أن أقدم انطباعات رجل نصراني. علماً أنني أرى بأن ديـــن الإســـلام والنصرانية وكذا اليهودية كلها ترجع أساسا إلى دين النبي إبـــراهيم باعتبـــاره "الجـــد المشترك".

فالنصارى والمسلمون يصرّون على عبادة الله وحده ويجتهدون على امتثال الأوامـــر الدينية في كلّ الأحوال، غير أنه، لم تتعامل هاتان الجماعتان بمقتضى المحبـــة والاحتـــرام اللذان يطلبهما الله من عباده. فارتُكبت الأخطاء من كلا الطرفين، وقامت الجماعتـــان كلتاهما بأعمال لا يمكن إلاّ أن نصفها بالجرائم. فما دام الوضع هكذا بـــين النصـــارى والمسلمين، يخطُر بالبال السؤال التالي:

"هل يريد سعيد النورسي أن يقول شيئاً ما للنصارى في الخطبة الشامية؟ وهل تتوجّه خطبته للمسلمين فقط، أم هل يمكن يا ترى أن نجد بأن خطبته هذه تتوجّه إلى كلّ مـــن يدينون فعلاً بدين الله الواحد؟ ".

خطة الخطبة الشامية:

بعد أن وضعنا هذين السؤالين في أذهاننا، فلنركّز الآن على الخطبة مباشرة.

إنّ خطتها فعلاً بسيطة، فبعد الحمد والثناء على الله وطلب الرحمـــة منـــه، يشـــرع النورسي في معالجة القضية التي حيّرت أكثر المؤمنين، حسب رأيه، وهي:

لماذا تقدم الكفار الذين خرجوا عن طاعة الله في الشؤون المادّية بسرعة بينما تأخرت تلك المناطق التي يتمسك فيها الناس بالدّين حتى وصلت بعض منها إلى درجة خطيرة من التخلف والفقر؟

إنّ مبحث النورسي هذا في بداية القرن العشرين يعكس لنا موقف الرجل المتدين إزاء تلك التنقيدات التي كان يقوم بها ضد الدين بعض الفلاسفة أمثال فورباـــخ وكونـــت ومارکس ونيتشه التي تجسدت في سياسات "الريسور جيمـــانتو" الإيطاليـــة، والثـــورة المكسيكية والرّوسية وسياسات شتى للأحزاب الليبرالية الأوروبية.

كان هؤلاء يرون بأنّ الدين ميزة من مزايا الإنسان البدائي، وأنّه قد أصبح كالأفيون في الوقت الحاضر وعائقاً في طريق التقدم البشري وعملية بناء الأمم.

إنّ النورسي لا يقلق من هذه الآراء ولا يتهور في الاعتراض عليها. بالعكس، نـــراه يشاطر بعض التشخيصات فيوافق على بعض التحليلات التي يجري عليها أصحاب تلك الآراء، هذا لأنّ للمجتمعات الدينية حصة من المسؤولية على الورطات التي وقعت فيها. فيؤكد النورسي على أنّ هناك ستة أمراض خطيرة يجب معالجتها إذا كـــان المتـــدينون يريدون القيام بدور إيجابي نحو التقدم الإنساني في المستقبل.

فبينما هو يعترف بإخفاقات المتدينين، تراه يردّ ويرفض الحلول الإلحادية المادية التي كان يقترحها المنتقدون، لأنه كان يرى بأنها سوف تؤدي إلى الكارثة، وتاريخنا اليوم يشهد بأنه لم يخطئ في تنبئه هذا.

فبقية الخطبة تعبّر عن مجهود النورسي في معالجة هذه المعضلة، وهذه الأمراض الست التي كان يعاني منها جمهور المسلمين. وكان منهج النورسي لأداء هذا المجهود يتميز بتقديم ست كلمات مقابل واحد من الأمراض المعنوية التي أصيبت بها المجتمعات الدينية، شأنه في هذا شأن الحكيم الذي:

1- يدرس العلامات الظاهرة كي يعرف الدّاء

2- يسمي الدّاء في التشخيص

3- يقدّم استقراء إيجابي يملأ المريض تفاؤلاً وسلوانا بحيث يؤكد له أنّ العلاج موجود.

4- يكتب له وصفة طبية يعتمدها لتسهل عملية الشفاء.

هيا بنا الآن ندقق في تلك الكلمات الست لنرى كيف يتعامل النورسي، وهو في منصب الحكيم الروحاني، مع تلك الأمراض التي أصابت هذا الزمان.

الدّاء الأول: اليأس – شفاؤه: الأمل

إنّ أول وأخطر مرض يواجهه المجتمع الديني هو مرض اليأس.

نعم، إنّ أفراد المجتمعات الدينية على خطر الوقوع في مرض اليأس وهم يشاهدون التقدم المادي لدى المجتمعات الأخرى، في الوقت الذي تغرق هي في التخلف والفقر المدقع. قد يصل هذا اليأس إلى درجة أن يحسب البعض بأن الرّب (عزّ وجل) قد تخلى عنهم ونسيهم وأن المستقبل للأعداء الملحدين الماديين أصحاب القوة والطاقة اللازمة للسيطرة على العالم.

إن النورسي يتصدى لهذا اليأس المعنوي بدواء الأمل.

وهناك – حسب رأيه – أمارات كثيرة تستدعي هذا الأمل. فبغض النظر عن أن الله وعد "بأنّ المستقبل للإسلام وحده" و"أنّ الحكم لن يكون إلاّ لحقائق القرآن والإيمان"[1]، هنالك أمارات قوية تستدعي الأمل نجدها في التاريخ، وحين نحلل الأوضاع الراهنة. فلو راجع المسلمون تاريخهم، لوجدوا أنهم كلما ازدادوا تقرُّباً وتمسّكا بالحقائق الإسلامية ازدادوا تقدماً ورُقياً. كما أنهم كلما ابتعدوا عن هذه الحقائق كلما أُصيبوا بالتخلّف والتوحش والإضمحلال.

إنّ الأمارة الأخرى الباعثة على الأمل كما يراها النورسي مغروسة في النفس الإنسانية، ذلك أنه لا يمكن للأفراد ولا للمجتمعات أن تعرف السعادة إلا بالدين، حتى أن أبعد الناس عن الدين تراه يفرُّ إلى أحضانه في وقت الشدّة والحاجة. فإن تمكنت المجتمعات أن ترقى ماديا بدون الدين تبقى مقيدة بالسقوط في مستنقع المنافسة والشح والحرب التي ستدمر كل ما أنجزوه لا محالة. فمهما ظهر الدين ضعيفا في القرن العشرين فانه من المنتظر أن حاجات الإنسان الدينية كحاجته إلى ربٍ يحميه سوف تتغلّب على طرق الفكر والسّلوك المادّية.

أما الأمارة الأخرى الباعثة على الأمل فهي التي تتمثل في انتشار التربية، لأنها تسمح للناس بأن يكشفوا على حقائق الدين وقيمتها بصورة أفضل بدون الرّضوخ إلى التقليد الأعمى.

علاوة على الأمارات المشيرة إلى استعداد الإسلام إلى الرقي المعنوي، يرى النورسي بأن هناك أمارات على استعداده للرقي المادي. فهناك قوى مغروسة في الإيمان لا يمكن لأية أيديولوجية بشرية أن تعوضها أو تقوم مقامها. فالكمالات التي تنجم عن الإيمان بالله، كتقدير الكرامة الإنسانية، وقوة الإصرار على امتثال الأوامر الدينية والمنافسة في العمل الصالح، والشهامة والشفقة، والنظرة التي تتجاوز النتائج السريعة، القصيرة المدى، كلها قوى تبشرنا حقا بأنّ المستقبل سوف يكون أكثر إنسانية، وأعدل، وأكثر تمدّناً وأرقى ممّا هو عليه اليوم.

فإن كان اليأس يؤدي إلى اللاّمبالاة، والكسل والشعور بالعجز والانحطاط فإن الأمل يدفع الناس إلى العروج إلى الكمالات التي أودعها الله في قابلياتهم واستعداداتهم لأنهم هم الذين خُلقوا في أحسن تقويم.

ثم إنّ الصراع القائم بين قوى الخير وقوى الشر ليس بصراع قائم بين قوى متكافئة، ذلك أن الشر والقبح أمور ثانوية وجزئية بالنسبة إلى الأصل في الخلقة الإلهية، فهي غير مالكة للقوى الكامنة في الحق والجمال والخير. وما دامت الغاية في الخلقة هي الخير والجمال والكمال فإنّه يصحّ للمؤمنين إذاً أن يبشروا ويأملوا بأن الله سوف يهدي الإنسانية إلى هاته الغايات.

إنّ الشيء الذي ساقني إلى هذه الإطالة هو أن مؤلف الخطبة الشامية نفسه خصّص الحصة الأطول لبحث اليأس والأمل وكأنّه يومئ بهذا بأنّ هذا الدّاء، داء اليأس هو أسوأ داء يُصيب مسلمي هذا العصر وأنّ الأمل هو العلاج العاجل لهم.

قلنا سابقا بأنّ النورسي يتكلم هنا عن قضايا الإسلام وأنّ خطبته موجهة إلى معشر المسلمين، لكنني كنصراني، أجدني متفقا مع تحاليله، وتشخيصاته للإشكاليات

ومستحسناً الوصفات الطبية التي يقدمها إزاء الأمراض الروحية التي نواجهها اليوم. فنحن النصارى أيضا نصرّ بأنّ أكبر عائق وأغلظ ستار أمام الفيض الإلهي ولطفه ورحمته إنما هو اليأس. من المؤكد أن اليأس ضرب من الكفران، ذلك أن دأب اليأس التشكيك في قوة الله وفي رحمته وفي قدرته على جعلنا أفراداً كما يحبّ أن نكون ومجتمعات كما يريدها هو أن تكون.

إنّ النّصارى يرون بأنّ هدايا الله لا تحصى ولكن الأهم منها في أعينهم ثلاثة هدايا: وهي الإيمان، الأمل والحب. الأمل هو تلك الهدية الهادئة التي تشعرنا بوجود الله وحضوره ونحن في أحلك الظروف وعلى باب الهزيمة. إنّ الأمل هو الذي يدفعنا إلى أحضان رحمة الله، واستغفار الله عندما تحيط بنا بلية السيئات، وهو الذي يبعث فينا روح التجنّد المعنوي وجميع طاقاتنا للقيام بالأعمال الكبيرة في سبيل الله وإن بدت تلك الأعمال فوق وسعنا وبدت الطريق إليها مملوءة بالعوائق والصّعوبات.

وقبل أن أنهي هذه الفقرة أودّ أن أشارك النورسي في ندائه هذا فأقول: بأنّ أينع ثمرة للدين والإيمان وأغلى هدية يمكن أن يقدمها المسلمون والنصارى للعالم المعاصر هي الأمل المغروس والرّاسخ في العادة والمشيئة الإلهية، ذلك الأمل الذي أصبحت تلح وتؤكد عليه حقائق الحياة في الوقت الرّاهن كلما تدبّرنا فيها.

الدّاء الثاني: الكذب – الدّواء: الصّدق.

إنّ الدّاء أو الآفة التالية التي يتعرض إليها النورسي في الخطبة هي موت الصّدق في الحياة الاجتماعية وكذا السياسية.

رغم أن الصّدق هو أس أساس الإسلام وحجر زاوية الحياة الاجتماعية الإسلامية، فإنّ نقائض الصّدق كالكذب والرياء والنفاق هي التي شاعت في المجتمعات الإسلامية في زمن النورسي.

فالنفاق موت للصّدق لأن النفاق هو أن تبدي للناس غير الذي تخفيه في نفسك. أما الرّياء فهو ضرب من الجبانة والتصنّع الذي يؤدي إلى تزييف الحقيقة والإتيان بالإفتراءات.

أما المداهنة فهي ضربك هذا إلى الرجل بذاك ثم زعمك أنك صديق الكل. إنّ ترويج الإفتراءات وكذا القذف كلاهما موت للصّدق، إذ لا يتضرّر أولئك الذين كُذب في حقهم بل تقطع روابط التساند في المجتمع، وقد يصل هذا الدّاء، موت الصّدق، إلى مس علماء الدين الذين يصدرون الفتاوى لإشباع حاجات شخصية. ناهيك عما يقوم به

السياسيون من أعمال بعيدة عن الصّدق خلال الحملات السياسـية، خاصـة عنـدما يحاولون تبرير سلوكهم وتحركاتهم بإشعال المناصب في سبيل أهدافهم الشخصية.

فدواء هذا المرض عند النورسي ما هو إلا الصّدق والشفافية. غير ممكـن أن يقـدم المسلمون بديلاً وحلاً لمشكلتي الكذب والرّشوة اللتان فاشتا في عالمنـا المعاصـر إذا لم يكونوا هم أول من يقيم الصّدق ويعمل بمبدأ المحاسبة.

لقد أكد النورسي في ترجمته التركية بأن هذه القضية لم تفقد أهميتها منذ أن تكلـم فيها لأول مرة.... يقول: "أيها الأخوة في هذا الجامع الأموي ويا أخوتي الأربع مائـة مليونا من المؤمنين بعد أربعين عاما في جامع الإسلام الكبير، لا نجاة إلا بالصّدق، هـو العروة الوثقى". [2]

الداء الثالث: العداوة – الدّواء: المحبّة.

إنّ السبب الثالث الذي أدى إلى ضعف العالم الإسلامي هو حب العداوة والخصومة. فالحربان العالميتان في هذا القرن، والحروب المحلية والأهلية في شتى أطراف العالم "قـد أظهرت مدى ما في روح العداوة من ظلم فضيع ودمار مريع". [3]

إنّ روح العداوة الناجمة من غرور الإنسان وحبه لنفسه قد تؤدي بصاحبه إلى عـداء الآخرين ظلما من دون أن يشعر. فعلاً، قد تتسرب روح العداوة حتى فيما بين المؤمنين، إذ تراهم يبدون حُبا وقبولاً في الظاهر وهم يكتمون العداوة بحقيقتها في قلوبهم. فهـذه ليست هي المحبة لأنها هنا تنقلب إلى المداراة والمماشاة والتملق. [4]

وتجدر الإشارة أنه في الوقت الذي يرى أغلب الناس بأنّ قبح الآخرين يُمثل مـبرراً على خصومتهم، كان النورسي يؤمن بأن لا مبرر للخصومة ما دام لا يوجـد هنـاك عدوان فاضح من الطرف الآخر، هذا لأنه "لا ينبغي أن يجلب سيئات أعدائنا عـداوتنا، فحسبهم العذاب الإلهي ونار جهنم". [5]

فدواءً لهذا الميل الفاسد للعداوة، يصف النورسي دواء المحّبة: "إنّ أجدر شئ بالمحّبة هو المحّبة نفسها، وأجدر صفة بالخصومة هي الخصومة نفسها". [6]

.إنّ المحّبة ومحّبة الآخرين هما اللتان تضمنان للفرد حياة إجتماعية آمنة وتحققان لـه السعادة. فالنورسي يرى بأنّ "المحّبة، والأخوة، والود من طباع الإسلام وروابطه". [7]

الدّاء الرابع: التفرقة – الدّواء: الإتحاد

إنّ الداء الرابع الذي يشخصه النورسي في أوساط المجتمعـات الإسـلامية هـو داء التفرقة. يرى النوسي بأن النـزاعات والإشتباكات العرقية والألسنية عاملان أساسيان في تشتيت شمل الأمة الإسلامية، لا على النطاق العالمي فحسب، بل وحتى على المسـتوى

الوطني. لقد أثار صاحب الخطبة هذه المسألة لا كمسألة نظرية، لأنه عندما أثارها كان يعيش في وسط أحداث وأوضاع حقيقية. فخطبته الشامية هذه، ألقاها في سنة 1911، أي في تلك الفترة التي مرت بها علاقات دمشق والدولة العثمانية بمرحلة توتر لا مثيل لها. وفعلاً لم تمض عشر سنوات على إلقاء تلك الخطبة فإذا بسوريا كلها تصبح تحت الحماية الفرنسية. ثم عاد النورسي بعد أربعين سنة يترجم تلك الخطبة إلى التركية في الوقت الذي كانت فيه سوريا والبلدان العربية المجاورة لها على وشك الاستقلال من قيود الاستعمار، راجياً فيها من المسلمين أن لا يدعوا للاختلافات العرقية والألسنية مجالاً لأنها تهوّن من قوة إتحادهم وأن لا يجعلوا علاقات الدول الإسلامية قائمة على مثل هذه الأساسات القومية. إن إتحاد الأمة على أساس الإسلام هو الدّواء الذي يصفه النورسي لداء التفرقة. يقول صاحب الخطبة الشامية لمستمعيه في الجامع الأموي: "لقد آن أوان الاتحاد الإسلامي وهو على وشك أن يتحقق، وعليه ينبغي أن تصرفوا النظر عن تقصيراتكم الشخصية، وليتجاوز كل عن الآخر".[8]

لذا ترى النورسي لا يقبل عذر من ادّعى بأنّ ليس هناك عمل يمكن القيام به في سبيل توطيد الوحدة والأخوة الإسلامية، والتماس مثل هذه الأعذار الواهية لا يدل – في نظر النورسي – إلاّ على تكاسل وتقاعس صاحبها. وفي عدد من المواقع كان النورسي يناشد القادة المسلمين والوعاظ على العمل معاً، من أجل إعادة بناء روابط الأخوة بين المسلمين، كما كان يدعو الأمم العربية المستقلة حديثا، أن تقتدي بمثال الولايات المتحدة الأمريكية كي تصبح جهودها بمثل ذلك الاتحاد مكللة بالنجاح، فيتسنى لها بدورها أن تعيد إلى شعوبها مكانتها المرموقة في وقت قصير.

الدّاء الخامس: الاستبداد – الدّواء: الكرامة الإسلامية

لا شك أن سعيد النورسي كان يدرك جيدا مدى الخسارة والإفلاس التي تعرضت إليه الأوطان الإسلامية نتيجة الاستعمار. وفعلا لقد تمكن الأجانب من خلال عمليات نهب وسلب منسقة من أن يسيطروا على معظم ثروات البلدان الإسلامية، "بثمن بخس دراهم معدودة مزورة".[9] بيد أن هذا الضرب من النهب والسلب هو في رأيه من أخف الأضرار التي خلّفها الاستعمار. ذلك أن الكارثة والأمر المؤسف حقا هو أن قسماً من الأجانب "كما سلبوا أموالنا... سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة، والتي بها يترابط مجتمعنا".[10]

يريد النورسي بهذا الكلام أن يجلب انتباهنا إلى الضرر المعنوي الذي ألحقه الاستعمار بالمجتمعات الإسلامية. فلا غرو أنّ فساد الأخلاق غالباً ما ينشأ ويبدو في الأوضاع التي يسودها الإضطهاد والاستبداد، كما أنّ سجايا المجتمع الحميدة كثيرا ما تنهار من جراء

الشعور بالذل ونتيجة فقدان العزة والكرامة. لذا جاء في كلامه "أن قسما من المستعمرين جعلوا (.......) الخصال الحميدة محوراً لرقيهم وتقدمهم، ودفعوا إلينا الطبائع الرّذيلة والأخلاق السّفيهة".[11]

إنّه يجب على المسلمين اليوم أن يعترفوا بوجود هذا الدّاء وأن يبذلوا كل ما هو في وسعهم من أجل تعديل هذا الاعوجاج، وإلاّ فإنهم لن يصلوا إلى التخلص من آثار الاستعمار كلياً. فيبقى بالتالي يعانون من تلك الآفات التي حط من شأنهم. ولمعالجة هذا الدّاء لا بد على المسلمين أن يرجعوا إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة، لأنّها هي الكفيلة باسترجاع الكرامة التي تفضل بها الله عليهم، كاملة غير منقوصة. يؤكد النورسي في كتاباته العديدة كما يؤكد في هذه الخطبة أنه بهذا الكلام لا يريد أن يشوّق أحداً على الخوض في عالم السياسة، لأن العمل السياسي بحد ذاته لا يؤدي إلى إحياء أسس الأخلاق ولا إلى إعادة بناء سجايا المجتمع. ويحذر في أماكن عديدة أن يستخدم الإسلام كوسيلة للوصول إلى أغراض سياسية. ومما جاء في خطبة النورسي الفقرة التالية:

"أرجو أن لا يذهب بكم الظنّ بأنني بكلامي هذا استنهض .... للاشتغال بالسياسة – حاش لله – فإن حقيقة الإسلام أسس من كل سياسة، بل جميع أصناف السياسة وأشكالها يمكن أن تسير في ركاب الإسلام وتخدمه وتعمل له، وليس لأي سياسةٍ كانت أن تستغلَّ الإسلام لتحقيق أغراضها".[12]

الدّاء السادس: الأنانية – الدّواء: الشورى.

لا يقبل النورسي أن يلوم المسلمون الاستعمار على كل ما يحدث لهم من تأخر وضعف. فالدّاء الأخير الذي يشخصه النورسي في أوساط المجتمعات الإسلامية، هو حصر الناس نظرهم في منافعهم الشخصية وحدها.[13] وكما أنه ليس من الإيمان أن يُذلل المسلم أخاه، كذلك ليس من الإيمان أن يتذلّل المسلم أمام الطغاة، لأنه من الشرك أن يكون العبد عبداً لغير الله.[14]

ثم إنّ الانشغال بالمصالح الشخصية فقط، وعدم المبالاة بمصلحة الأمة سوف يؤدي حتماً إلى تعطيل حركة الانكشاف الحضاري وتأخيرها إلى أجلٍ غير مسمى.

ليس هناك وسيلة أخرى غير وسيلة الشورى للخروج من هذه الأزمة. فالشورى عند النورسي هي التي تمثل الحل الإسلامي لمشكلة الاستبداد والأنانية وهي الأساس الذي يبنى عليه الحرية الشرعية والانكشاف الحضاري. ذلك أن الشورى هي "تلك الحرية النابعة من الشريعة ومن الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية" وهي الجديرة بأن تفك المسلمين

من قيود الاستبداد بشتى أنواعه". [15] فلو كفّ الناس عن حصر نظـرهم في مصـالحهم ومشاريعهم الشخصية، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم في جوّ يسوده الإخلاص والتساند "لتمكنّ عشرة أشخاص من أنجاز ما يقوم به ألف شخص". [16]

إن احتياجات البشرية ومشاكلها لا تحدّ ولا تحصى. وما دام الأمر هكذا فالنورسي على قناعة بأن الناس مدعوّون أن يتعاونوا فيما بينهم وأن يتعارفوا ويتبادلوا خبراتهم إن كانوا يريدون الوصول إلى منافع حقيقية. يقول النورسي في هذا الصدّد:

"لا بدّ أن يكون أمام أولئك الأعداء غير المحدودين والحاجات التي لا تحصر، نقطـة استناد تنبع من الإيمان، فكما تستند الحياة الشخصية إلى تلـك النقطـة فـإنّ الحيـاة الاجتماعية أيضا إنما تستطيع أن تدوم وتقام بالشورى الشرعية النابعة من حقائق الإيمان، فتقف أولئك الأعداء الشرسين عند حدهم وتلبى تلك الحاجات". [17]

حاصل الكلام

لا شك أن الخطبة الشامية موجهـة بالدرجـة الأولى إلى المجتمعـات الإسـلامية. والنورسي بتحليلاته وتشخيصاته التي أتى بها في هذه الخطبة، إنّما كان يحاول أن يـبين للمسلمين طريقا تساعدهم على التخلّص من العيوب والآفات الاجتماعية، وتسمح لهم بإعادة بناء مجتمع منسجم ومؤهل للازدهار والانكشاف الحضاري.

بيد أنّه يتوجب على كرجل نصراني أن أشير إلى النقطة الآتية. إنني لا أجد أية أمارة في هذه الخطبة تشعرني بأن النورسي كان يريد تحريض المسلمين على النصارى. بالعكس يجدر بنا الذكر أن كل ما نقرؤه في ثنايا رسائل النور يرينا بوضوح بأنّ النورسي لا يودّ مخاصمة النصارى الحقيقيين باعتبار أنّ هؤلاء يعبدون الله مثله ويتمسكون بالقيم الدينية مثله. إن عالمنا اليوم في وجهة نظر النورسي بحاجة إلى مسـلمين حقيقـيين ونصـارى حقيقيين يسهرون معا على صيانة القيم النابعة عن الإيمان بالله. وإنّني لأجد في الخطبـة الشامية التي عالج فيها النورسي مشاكل المجتمعات الإسلامية، وصفة طبية لكـثير مـن الأمراض في العالم النصراني: ذلك أنّه يمكن للمجتمعات النصرانية أن تستفيد من عديـد من المسائل التي أثارها النورسي في تلك الخطبة.

إنّ المجتمعات النصرانية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا على سبيل المثال قد أصيبت بمضار الاستعمار على الرّغم من قوة تدينها. فهي أيضاً معرضة لأمـراض اليـأس، والخيانـة، والعداوة، والتفرقة والاستبداد والأنانية، وهي أيضا محتاجة إلى دواء الأمـل والصّـدق، والمحبة، والاتحاد، والكرامة الإنسانية والشورى كما تحتاج إليها المجتمعات الإسلامية إن

لم تكن تحتاج له أكثر. أما المجتمعات النصرانية المتقدّمة فيمكنها هي الأخرى أن تستفيد من تلك الإنذارات التي وجهها النورسي إلى المجتمعات التي تتبنى المنافسة كنمط للحياة والاقتصاد العدائي كنمط تعايشن متناسية مكانة الله وحاجات الناس الدينية.

يمكنني أخيراً أن أردّ على تلك الأسئلة التي طرحتها في بداية هذا البحث بالإيجاب. أجل إنّ الخطبة الشامية لا زالت ذات صلة بالقرن الواحد والعشرين ولا زالت مناسبة لتحدّياته. أجل، إنا لنجد في تحليلات النورسي كما هي بادية في هذه الخطبة ما يستحق أن يكون مدار انتباه نصارى العصر الحديث. لا يراودني شك بأن الكلمة السادسة من الخطبة التي تدور حول مسألة الشورى تتناول مسائل لا تهم المسلمين فحسب، بل تهمّ كل من يؤمن بالله ويعمل على تنفيذ مشيئته في الأرض. وأنا إنما قدمتُ هذه الأفكار حول الخطبة الشامية لسعيد النورسي من باب الشورى التي يُدعى المسلمون والنصارى إليها اليوم.

ترجمة : رضا عامر

الهوامش

1 صيقل الإسلام، ص492
2 صيقل الإسلام، ص 508
3 نفس المصدر
4 نفس المصدر
5 نفس المصدر
6 نفس المصدر
7 صيقل الإسلام، ص 510
8 صيقل الإسلام، ص 512
9 صيقل الإسلام، ص 513
10 نفسه
11 نفسه
12 صيقل الإسلام، ص 512
13 صيقل الإسلام، ص 514
14 صيقل الإسلام، ص 514
15 صيقل الإسلام، ص 514 بتصرف
16 صيقل الإسلام، ص 514
17 صيقل الإسلام، ص 515